ملف

200 عام على ولادة صاحب «أوراق العشب» والت ويتمان: شاعر الشعب

وريث هوميروس وفرجيل ودانتي وشكسبير

احتفى بالحواس ورأى «أميركا الحلم»

شاكر حسن راضي *

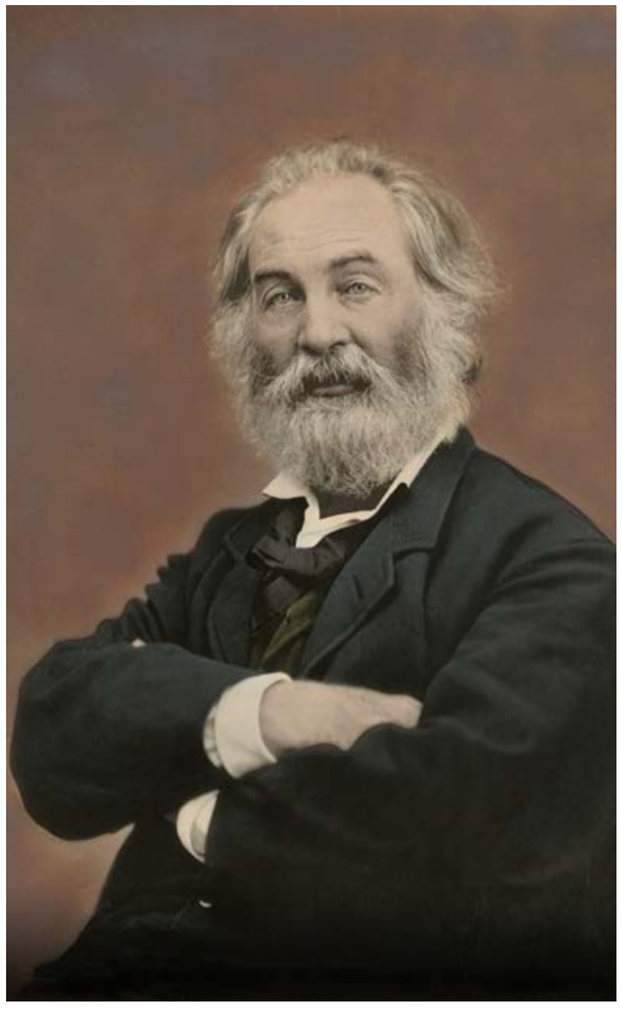

ولد والت وتمان في لونغ ايلند في نيويورك. ولو بقي حياً لبلغ سنّ المئتين الآن، لكنا سنحتفي بمولده في محاضرات وعروض مسرحية وحفلات موسيقية وأمسيات شعرية ودراسات نقدية جديدة. فهذا الشاعر (1819-1892) الأميركي هو وريث شعراء من أمثال هوميروس وفرجيل ودانتي وشكسبير وكل الشعراء الذين عزفوا الشاعر على أنه الرائي، والفرد المتميز بموهبته ولغته وصوره وموسيقاه، وهو الفرد المنطلق نحو حريته، مجسداً ذلك «الحلم الأميركي» الذي تاق الإنسان إلى تحقيقه عبر تاريخ طويل من المعاناة والكفاح. ويجد ويتمان أنه لم يكن فرداً في جوقة بل شاعر يعرف «السر المثير للفضول».

احتفى ويتمان بمواضيع تغنت بالديمقراطية والطبيعة والحب والصداقة، إلى جانب مواضيع تعلقت بالروح والجمال وحتى بالموت. وواصل تطوير أسلوبه الشعري الفريد وأدهش مجايليه من الشعراء والنقاد ومنهم رالف إيمرسون الذي احتفى بالنسخة الأولى من «أوراق العشب» التي ضمت 12 قصيدة فقط في حينها حيث واصل ويتمان تنقيحها وتطويرها ليركز على مهمة بناء ورسم الحدود الأخلاقية والنفسية والسياسية لثقافة العالم الجديد. وحين اندلعت الحرب الأهلية في أميركا، قرر أن يحيا حياة «نقية» وتطوع للعمل في المستشفيات ورحل إلى واشنطن عام 1862 لرعاية شقيقه الذي جُرح في الحرب. وكان لتجربة الحرب ومعاناتها عميق الأثر في مسيرته ولغته وموضوعاته وتطلعاته لبناء عالم خال من العنف والاستغلال:

«قال طفل، متسائلاً ما معنى العشب؟
وهو يحمل عشباً ملأ يديه
كيف لي أن أرد على سؤال الطفل؟
لا أعرف معنى العشب أكثر منه
أو أظن أنه منديل الرب
هدية معطرة، وذكرى أنزلت عن عمد
تحمل اسم المالك»

في 1873، تعرض ويتمان لجلطة تسببت له بشلل جزئي. بعد أشهر رحل إلى كامدن في نيوجيرسي لزيارة أمه التي كانت تحتضر في بيت أخيه حيث بقي حتى عام 1882 ونشرت له نسخة جديدة من «أوراق العشب»، مما ساعده على كسب المال وشراء منزل في كامدن. لكنه توفي في 26 آذار (مارس) 1892 ودفن في القبر الذي صممه بنفسه وبناه على قطعة أرض في مقبرة هارلي. قضى ويتمان جلّ حياته كشاعر في كتابة «أوراق العشب» وتنقيحه حتى وفاته، ما أدى إلى إنتاج طبعات عديدة من الديوان على مدى أربعة عقود. وقد ظهرت الطبعة الأولى بكتاب صغير يضم 12 قصيدة كما نوهنا، فيما كانت النسخة الأخيرة تضم أكثر من 400 قصيدة.

تتميز قصائد «أوراق العشب» بضعف ترابطها في الديوان، إذ تقدّم كلّ قصيدة احتفاء الشاعر بفلسفته في الحياة والسعادة بالمتع الحسية في زمن اعتبر مثل هذا الاحتفاء أمراً لا أخلاقي. وفي الوقت الذي ركز فيه الشعراء الإنكليز الذين كتبوا قبل ويتمان على الرمزية والدرس الأخلاقي والتأمل في القصيدة الدينية والروحانية، احتفى ديوانه «أوراق العشب» بالجسد والعالم المادي، حيث نجد ويتمان الذي تأثر برالف إيمرسون وحركة التسامح، وهي نتاج مباشر وأثر من آثار الحركة الرومانسية، يحتفي بالطبيعة ودور الإنسان الفرد فيها. رغم ذلك، لم يهمل دور العقل أو الروح، بل نجده يسمو بالإنسان، شكلاً وعقلاً، ويرى فيه محطّ اهتمام الشعراء واحترامهم.

من حيث الشكل، أهمل ويتمان القافية أو أحكام الوزن الصارمة وطول البيت الشعري. ومن بين أشهر قصائده في هذه المجموعة، «أغنية نفسي» التي يراها النقاد جوهر رؤية ويتمان الشعرية: قصيدة جمع فيها ما بين السيرة الذاتية والموعظة والتأمل الشعري. ويكتب الشاعر في مقدمتها «أتوقف في مكان ما بانتظارك». ويرى ويتمان أن محل ولادة الشعر هي الذات الإنسانية وأفضل طريقة لفهم الشعر هي الاسترخاء ومراقبة نشاط عقل المرء.

ظلت «أوراق العشب» مجموعة مثيرة للجدل: فهي تحتفي بصور حسية صريحة، تعرّض بسببها ويتمان للنقد، لكنها نجحت في النفاذ إلى ثقافة الشعب واعتُبرت من الأعمال الأساسية في تاريخ الشعب الأميركي. يرى الناقد ميلر أن تأكيد ويتمان على «الثقافة الأميركية ساعدته في إيجاد ملحمة أميركية متميزة يمكن مقارنتها بأعمال هوميروس» (ميلر، 55) وفي ثقافة دائمة التغير، نجد أعمال ويتمان تتمتع بالتحرر من قيود الزمن، وهذا ما تواءم مع المفهوم الأميركي للديمقراطية والمساواة، «مما أدى إلى إنتاج نفس التجربة ونفس المشاعر في نفوس أناس تفصلهم قرون من الزمن» (فيشر، 66) وتشير الاستعارة المأخوذة من العشب إلى رؤية رعوية لنظرة مثالية ريفية. ويؤكد الشاعر هذه الرؤية في معظم قصائده التي تحتفي بفكرة الحرية في الطبيعة التي تكون متجسّدة في الزمان والمكان وحرية التعبير.

> آثارت مجموعة «أوراق العشب» الجدل كونها مليئة بالصور الحسّية، لكنها احتلّت مكانتها في تاريخ الشعب الأميركي

لكن الشاعر تعرّض للنقد بسبب الغلو في النزعة الوطنية الأميركية التي نجدها واضحة في «أوراق العشب» وقصائد أخرى. ويقول الناقد ناثانيال أوريلي في دراسته عن هذه النزعة في شعر ويتمان أنّ أميركا كما تخيلها ويتمان متغطرسة وتوسعية وهرمية وعنصرية، وأنّ «أميركا كهذه غير مقبولة عند سكانها الأصليين والأميركيين من أصول أفريقية والمهاجرين....وكل أولئك الذين يؤمنون بالحقوق المتساوية» (أوريلي، 53). أمر ظلّ يواكب رحلة ويتمان في كتابة ملحمته ورؤيته لأميركا الحلم التي تناقض صورة الدولة التي تخيلها منتقدوه. ويردّ من خلال الجمع ما بين نزعة الفلسفة المتعالية والواقعية، هذه الفلسفة التي جسدها في قصائد «أوراق العشب» و«أغنية نفسي» و«أيها القبطان»:

«الشفتان شاحبتان وساكنتان
أبي لا يشعر بذراعي
ليس هناك نبض ولا إرادة
ترسو السفينة سالمة آمنة
انتهت رحلتها
من رحلة حافلة بالموت
السفينة المنتصرة
تدخل منجزة غايتها
امرحي أيتها الشواطئ
ودقي أيتها الأجراس»

وفي قصيدة «أميركا»، يجسد ويتمان رؤيته وحلمه بعالم يسمو فوق تفاهات الأخطاء والخصومات والهيمنة، فتكون الأم والأخت والحضن. لكن السؤال الذي يفرض نفسه بعد مرور قرنين على الحلم، هل ما زالت هي فعلاً مركزاً لأخوان وأخوات يتقاسمون المحبة؟

«كلهم سواء في المحبة
إن كانوا بالغين أو غير بالغين، شباناً، كهولاً
أقوياء، كرماء، نزيهين، صبورين، قادرين، أثرياء
«أميركا» خالدة خلود الأرض
خلود الحرية والقانون والحب
عظيمة حكيمة متسامية
أم رؤوم في صوان الزمن»

لكن في أجمل مقارناته، يذهب ويتمان بعيداً في مقاربة الإنسان بالحيوان، حين يجد أن الحيوان مكتف ذاتياً ولا يتجاوز حاجته ولا يتذمّر كثيراً ولا يسهر في الظلام ولا يبكي بسبب ذنوبه، ولا تزعجه مناقشة واجباته تجاه الخالق!

ويمكن أن يكون الاقتباس التالي خير خاتمة للتذكير بعظمة رؤية هذا الشاعر وحداثة نظرته للشعر رغم مرور قرنين على ولادته: «نحن لا نقرأ الشعر ولا نكتبه لمجرد أنه شيء جميل. نحن نقرأ ونكتب الشعر لأننا أعضاء من العنصر البشري، والعنصر البشري مشحون بالعاطفة. ولذلك، يعتبر الطب والقانون والتجارة والهندسة وغيرها من العلوم دراسات نبيلة وضرورية لديمومة الحياة، لكن الشعر والجمال والمخيلة والحب هي الأهداف التي نحيا من أجلها» (من مقدمة كتاب «أوراق العشب»).

* أستاذ مساعد سابق، في قسم اللغة الإنكليزية، كلية اللغات ـ جامعة بغداد ـ
محاضر ومترجم فوري في مؤسسات دولية
ومحطات تلفزيونية، مقيم في الإمارات.
نشرت له بحوث ودراسات في الشعر المكتوب بالإنكليزية

المراجع

Fisher, Philip, The New World, - American Literature in a Culture of Creative Destruction, Harvard University .Press
Greenspan, Ezra, ed. Walt Whitman's - ,Song of Myself, Rutledge, New York .2005
A Study in the Romantic Drift in - Whitman's Leaves of Grass, Academia .Publications
Nathaneal O'Reilly, Imagined America, - Nationalism in Leaves of Grass, British Journal of American Studies

من (ترجمة) سعدي يوسف إلى رفعت سلّام

المحسوس والواقع المعيش والمفردة السائرة

علي عبد الأمير

في أواخر السبعينات، وفيما كانت بغداد تغلق صفحات حرية فكرية قليلة ميّزت سنوات الـ 1972-1979، صدرت ترجمة مُبهرة لـ«أوراق العشب» بتوقيع الشاعر العراقي سعدي يوسف، هي الأولى من طبعات تجدّدت لاحقاً في القاهرة ودمشق بعد نحو ثلاثين عاماً. في تلك الترجمة، يؤكّد صاحب «الأخضر بن يوسف ومشاغله» أنّ «تقديم ويتمان إلى قارئنا وشعرنا في هذه المرحلة بالذات له أهمية كبرى، فهو أولاً نسمة شعرية صحية بين الكثير الكثير مما يترجم من شعر إلى لغتنا. وهو ثانياً شاعر أمة في دور النهوض، ما يقدم لشعرنا المتطلع إلى أن يكون المعبّر عن نهوضنا، أنموذجاً عالياً. وهو ثالثاً شاعر ثورة شعرية امتدت إلى أوروبا، وآتت أكلها، فقصيدة النثر ما كان لها أن تشقّ سبيلها الأوروبي لولا إسهامة ويتمان الكبرى. وهو رابعاً شاعر المحسوس والواقع المعيش والمفردة السائرة، وما أحوجنا وأحوج شعرنا إلى المحسوس والمعيش والمفردة السائرة». في الملاحظة الأخيرة، كان سعدي يوسف كان يتصل بجوهر شعره الجميل «شاعر المحسوس والواقع المعيش والمفردة السائرة» الذي صار له مريدوه من شعراء العربية في العقود الماضية. ومن هنا بدا مدخله إلى «أوراق العشب» متصلاً بتجربته الشعرية والروحية وحتى قاموسه اللغوي الخاص، ومحاولةً منه لدرء ما لحق بالشاعر الأميركي الذي نحتفي بذكرى ولادته المئتين، لجهة تعرضه لـ «تشويهين كبيرين». الأول يتعلق بـ«أفكار ويتمان» وتمثله مراجعات ودراسات أميركية وأوروبية «حاولت أن تضع الشاعر في منزلة النبي أو المتصوف حيناً وفي منزلة الشاذ حيناً مستفيدة من شواهد في شعره ومشاهد من حياته». أما الثاني، فمثلته نظرة الشاعر ت.س إليوت إلى شعر ويتمان الذي رأى أن «من غير الخسارة أن نرى أفكار ويتمان تتساقط عن أشعاره». ولكونه «شاعر المحسوس والواقع المعيش والمفردة السائرة»، قرأ سعدي يوسف عمل ويتمان انطلاقاً من «سائقي العربات والبحارة والنجارين والجنود واستطاع أن ينتقل من دار العتمة إلى دائرة الضوء مقدماً وجوههم وكلماتهم وأعرافهم وآلامهم ومباهجهم، وكان حريصاً في تقديمه هذا على أن يمنحهم جميعاً بطاقة تعريف واحدة محترمة لا نجد فيها غضاضة حين تجمع العاهر والقديس».

صحيح أن هناك ترجمات لشعر ويتمان إلى العربية، سبقت ما أنجزه سعدي يوسف، إلا أن للأخير فضلاً في تقديم صاحب «أوراق العشب» بلغة صافية رائقة محسوسة ومتداولة، لا تثقلها المرجعيات القاموسية، بل كانت مدركة لعبقرية ويتمان في إنزال الملحمة الشعرية من علو سماوي متخيل إلى نبض أرضي وحياتي مشتبك بالمصائر الإنسانية ونشدانها السرمدي للحرية. والمعنى الأخير لم يفارقه الشاعر والمترجم المصري رفعت سلّام الفائز أخيراً بـ«جائزة أبو القاسم الشابي» عن ترجمته «أوراق العشب» كاملاً إلى العربية، فهو يرى أن ويتمان «صوت شعري فادح وفريد، يُنزل القصيدة من علياء التأمل الذهني في القضايا المجردة إلى هموم الإنسان اليومي، العابر في طرقات العالم، ليحتل هذا الإنسان قلب القصيدة، بلا منازع، بأوجاعه، وأحلامه، وهمومه». ترجمة الديوان الكامل لويتمان التي صدرت في القاهرة عام 2016 جاءت بنحو ألف صفحة، تضمّنت مقدمة مترجمها الشاعر رفعت سلّام وتمحورت حول الجوانب الفنية الجوهرية في شعر ويتمان، وتفاصيل تتعلق بنهج الترجمة إلى العربية، وأردفها بثانية جاءت أشبه بـ«سيرة» للشاعر الأميركي وديوانه الوحيد المتجدد «أوراق العشب». كما احتوت على قصيدة لوركا الشهيرة «غنائية إلى والت ويتمان». ومن هنا بدا طبيعياً أن يصف سلّام ترجمته بكونها «سفر ويتمان الشعري الكامل»، بل هي لـ «قارّة شعرية بكاملها - لم يسبق أن عرفها الأدب الأميركي، ولا المكتوب بالإنكليزية عامة- تضم بلداناً وأنهاراً وجبالاً وبحاراً، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب شاعر من قبل». قبل ترجمة سلّام «الكاملة»، هناك ترجمة أخرى «جزئية» صدرت من ركن الثقافة العربية الثالث البارز، أي دمشق، وهي ترجمة الشاعر والأكاديمي السوري عابد اسماعيل لقصيدة «أغنية نفسي» لويتمان، التي يرى بعضها أنها تتضمن «فرقاً شاسعاً بينها وبين ترجمة سعدي يوسف». يومها، قال عابد اسماعيل: «حين ذهبت إلى الولايات المتحدة لإكمال دراستي، لم أكن قد اكتشفت والت ويتمان بعد، إلا من خلال الترجمات المتفرقة هنا وهناك. عشتُ لأكثر من ست سنوات في المدينة التي عاش وتربى فيها، وهي مدينة نيويورك، وخبرتُ الشوارع التي تعود ويتمان التسكّع فيها، والموانئ المنتشرة على طول نهر هدسون، التي اعتاد الذهاب إليها، بل كنت أعبر حديقة والت ويتمان في مدينة بروكلين مرّتين يومياً، ذهاباً وإياباً، في طريقي إلى جامعتي «نيويورك يونيفرستي» في مانهاتن (قلب نيويورك). واكتشفت عوالم ويتمان الحسّية، شيئاً فشيئاً، وبدأت أقرأ شعره في ضوء هذه المعايشة اليومية». وعن اختيار «أغنية نفسي» كونها تمثيلاً لشعر ويتمان، قال اسماعيل: «بعد حصولي على الدكتوراه في الشعر الأميركي الحديث، وعودتي إلى سوريا، بدأتُ أدرّس ويتمان لطلابي في السنة الرابعة في جامعة دمشق، وركّزت على قصيدة «أغنية نفسي» كونها تمثل النواة المركزية لكتاب ويتمان الوحيد «أوراق العشب» الذي أمضى الشاعر حياته كلّها ينقّح فيه، ويضيف إليه، ويحذف منه، حتى أننا نحصي تسع طبعات مختلفة منه بين عامي 1855، وهو تاريخ ظهور الطبعة الأولى، و1892، تاريخ ظهور الطبعة الأخيرة، التي عرفت بـ«طبعة فراش الموت». شرحت الأسباب التي دفعتني لترجمة هذه القصيدة في مقدمة كتابي، وقلت إنّ الترجمات التي قرأتها لويتمان لا ترتقي البتة إلى مستوى النص الأصلي، فهي إمّا ترجمة يتصرف كبير، أو محاولة لفرض صوت المترجم وأسلوبه على النص الأصلي، وفي كلتا الحالتين، نحن أمام ترجمة غير مثالية، وناقصة».

ويتمان العربي: وداعاً للخيال

حكمت الحاج *

لقد عمل الشاعر الأميركي والت ويتمان (1819 - 1892) على كسر حدود الأشكال الشعرية المتداولة حتى ذلك الحين بينما كان شعره يقترب من النثر روبيداً روبيداً. ضرب بكل الأساليب الشعرية القديمة عرض الحائط، فقد تمكّن من تحطيم القوالب الأوروبية التي كان يصب فيها الشعر الأميركي عنوة، مما جعله مجرّد تقليد باهت يخلو من عناصر الأصالة التي تنبع من تربة الوطن نفسه. كما استخدم قاموساً ضخماً من المفردات والصور والرموز غير المعتادة في الشعر، بما في ذلك الأوراق المتعفنة، وخصلات من القش، الأنقاض والأزيال. كما كتب بشكل واضح لا لبس فيه عن الموت والنشاط الجنسي، بما في ذلك الدعارة. غالباً ما يوصف بأنه أبو الشعر الحر، على الرغم من أنه لم يخترع ذلك. كتب ويتمان في مقدمه طبعة عام 1855 من «أوراق العشب»: «إن برهان الشاعر الحقيقي هو أن تمتصه بلاده بمودة كلما استوعبها هو». وأعرب عن اعتقاده بوجود علاقة حيوية وتكافلية بين الشاعر والمجتمع. وقد تم التأكيد على هذا الاتصال وخاصة في القصيدة الشهيرة «أغنية نفسي» باستخدام ضمير الشخص الأول المتكلم. وكان أول من استعاض بقوة، ضمن روح الملحمة الأميركية، الاستخدام التاريخي للبطل المتعالي الخارق بأبطال من البشر العاديين. وأثناء عمله في سكرتارية المكتب الهندي في وزارة الداخلية الأميركية، صدر له ديوان «أوراق العشب». فقام الوزير بطرده على أساس أنه عمل غير أخلاقي. لكنّ الكتّاب والمثقفين لم يتحملوا هذه الإهانة التي لحقت بالشاعر الكبير، فكتب وليام أوكونور كتاب «الشاعر الشيخ الصالح» عام 1866. واستجابت «أوراق العشب» أيضاً للتأثير الذي أحدثه التحضر الاجتماعي في الولايات المتحدة الذي طال الجماهير العريضة. في عام 1873، أُصيب بنوبة شلل. وأثّر ذلك على كتاباته، وغيّر المرض من فكره إلى حدّ ما. لقد تحول أسلوبه الواقعي المباشر إلى صور التلميح والتجسيد الفني المركب. تبدلت فلسفته التي تعتبر الكون مادة واحدة، لكي تصبح مثالية روحانية يغلب عليها التصوف. تغيرت آراؤه السياسية من الفردية إلى القومية، ثم إلى العالمية. هبطت درجة حماسته المطلقة للحرية الفردية إلى تأييد مطلق للنظام الذي يتحرك المجتمع في إطاره. هاجم كل أنواع التعصب والفاشية والديكتاتورية، مؤكداً أن لا ازدهار لأمة إلا بترسيخ الديمقراطية فيها. لقد آمن بأن الحرية الفردية لن تجد متنفساً إلا في الحب، كما تتمثل الحرية الاجتماعية في الديمقراطية، وأن الحب والديمقراطية وجهان لعملة واحدة هي المجتمع الإنساني كما يجب أن يكون. كانت عينه على الحياة الأميركية في حين تتبعت عينه الأخرى الحياة في كل مكان. كان يرى أن الشاعر هو ضمير أمته، ومن ثم لا يمكنه النظر خارج حدودها لاستلهام الوحي، وأن الطريق إلى العالمية الإنسانية لا بد أن يمر بالإقليمية المحلية. يعد والت ويتمان رائداً للشعر الأميركي كما يعد مارك توين رائداً للرواية الأميركية، ويوجين أونيل رائداً للمسرح الأميركي. وهكذا ترى عزيزي القارئ كيف أنّ بعض معطيات الشاعر والت ويتمان الشخصية والشعرية، يلفها الغموض وتحيطها الخرافة. لكن الخرافة الأكبر في كل هذا إنما كانت تلك المتعلقة بحضوره في الثقافة العربية وتمهيده السبيل لثورة الشعر العربي الحديث كما حصل على أيدي الشعراء العراقيين الرواد من أمثال بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وغيرهما. ففي نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كما يقال، كان العالم العربي يعيش فترة تحوّل مهمة في مختلف بناه الثقافية، وكان الأدب العربي يشهد محاولات جادة لإخراج الشعر من أسر الصناعة والتقليد الذي كبله طويلاً.

الريحاني وجبران على خطى ويتمان

بحكم وجود أمين الريحاني وجبران خليل جبران في الولايات المتحدة وإتقان اللغة الإنكليزية، توفر لهما الاطلاع على أعمال ويتمان، ما فتح المجال أمام الريحاني ومن بعده جبران لابتكار نمط شعري جديد أسماه الريحاني الشعر الحرّ، وأطلق عليه النقاد لاحقاً اسم الشعر المنثور أو قصيدة النثر. وقد جمع الريحاني نصوصه التي كتبها متأثراً بويتمان في كتابه «هتاف الأودية» الذي يعده النقاد أول ديوان في الشعر المنثور في الأدب العربي، وتبع جبران خليل جبران الريحاني في تأثره بويتمان وسار على نهجه. والغريب هو توفر عدد كبير من الباحثين الذين يروّجون لمثل هاته الخرافات وتصديقها من دون أدنى بذليل يدلّ على المزاعم. ورغم كل الجهد المبذول في استيراد والت ويتمان عبر أبوته المزعومة للشعر العربي الحر وكذلك لقصيدة النثر العربية، ورغم صعوبات استنباته في مجال المقارنات النقدية والاصطلاحية (شعر حر شعر مرسل شعر منثور قصيدة النثر شعر غير موزون وغير مقفى إلخ) ورغم جهود استزراعه في التربة الشعرية العربية من خلال ترجمات رائدة ومتقنة، ابتداها الشاعر العراقي سعدي يوسف بترجمته مختارات من «أوراق العشب». وأنهاها الشاعر المصري رفعت سلام بالترجمة الكاملة والأمينة لـ«أوراق العشب»، والتي استحق عليها مؤخراً «جائزة أبو القاسم الشابي» التونسية، تقديراً لما قام به من فضل دائم لا يضاهى على الثقافة العربية. أقول، بالرغم من ذلك وكله فقد بقيت مسألة حضور وتأثير والت ويتمان على الشعر العربي مسألة هلامية متأرجحة بين خفة الصحافة وسرعتها وراهنيتها، وبين إسهامات ترجمية أو نقدية غير منهجة وغير مدعومة كمشاريع طويلة الأمد، وبالتالي فلا تأثير حقيقياً يرتجى، ولا سيروررة فعل يفحص نقدياً. لكنّ شاعراً عربياً لبنانياً معاصراً وهو كذلك باحث وناقد وأكاديمي مرموق أصدر في مقتبل هذا العام كتاباً شعرياً كبيراً وغريباً وغير مألوف بعض الشيء، أو كثيره، أعاد بل ألقى الضوء، من جديد على والت ويتمان بشكل مبتكر لم يتم لغيره السبق إليه عبر منظومة شعرية تعتمد تكثيك «تحضير الأرواح» بجانبيه السحري والعلمنفسي، وتعتمد في الوقت عينه أسلوب التصادي صوتاً ووعياً ما بين شاعرنا العربي وشاعرهم الأميركي، نازعاً عنه معظم الخرافات التي التصقت به منذ اكتشافه عربياً. وإني لأظن بشيء من التأكد المريح إن الكتاب الشعري بعنوان «أنا هو آخر بصحبة ويتمان بوبلير رامبو ونيتشه» والصادر عن «مومنت للكتب والنشر» في المملكة المتحدة، للشاعر شربل داغر، سيلقى انشغالاً من القراء الحقيقيين قبل النقاد المغرمين بقضية تطور الأشكال الشعرية وآفاق الشعر الحر وحرية الشاعر في اجتراح «حلولات» ناجعة لأزمة وجود من أو ما يسمى بـ«العربي» كائناً كونياً معاصراً يعاني اللغة ويجنح للحرية والديموقراطية ما جنحوا لها. يقول شربل داغر في كتابه هذا: «يبدو لي، على عجل، بُعدي عن ويتمان، شديد الخصوصية، إذ يُقيمني في شعر أجنبي لا في شعر أتفاعلُ معه وأجدُ فيه ما يحرِّضني، ما يستفزني، ما يُبقيني خارجه وأشتهيه. إذ أقرأ شعره، أتحقق من أنه يريد أن يبدأ، أن يستهل ما يَعتبره افتتاحاً لتاريخ، حيث هو محمَّل للغاية بما هو حاليّ (في زمنه) وحاضرٌ لدرجة التوثيق والإخبار الوَرَقي أو العياني». يصف شربل داغر شغل ويتمان في قصيدته، بأنه قد طلبَ هوية أخرى للشعر، وكياناً آخر للقصيدة، فانتسبَ إلى «ديموقراطيته» هذه كثيرون، وحتى اليوم. وسرعان ما يستدرك شاعرنا قائلاً: «بكل أسف، يا ويتمان، لهذا لا أحب أحياناً أميركا التي تُحب... لهذا خضرتُ، وما شعرتُ بوهج الحماسة المندلعة في سطورك الممتدة، مثل من ينتشي بفعلته من دون أن ينتبه إلى أن المتفرج عليه يتثاءب ويستعد للمغادرة. لا ألبي نداء النفير، وقرعُ الطبول أداريه بسماع «الجاز»، فلا تأمّل بأن أكون رفيقَ مشهدٍ ووقائع تريد لها أن تكون تكوينية، مثل انبلاج حياةٍ حيث لم تكن هناك حياة، في أرض عدن الفردوسية». لقد تسنى لي أن ألتقي شربل داغر وسألته عن بنيان كتابه الشعري هذا، فأفاد قائلاً بأن كتابه الشعري الأخير، «أنا هو آخر بصحبة ويتمان، بوبلير، رامبو ونيتشه» يتكون من أربعة كتب، والأول منها مخصص لويتمان. وما استوقفني في شعره، والكلام لشربل داغر، في تفاعلي معه، هو أنه من الشعراء الثلاثة الآخرين كان له وجه عربي واضح. هذا ما جعلني أخصص قطعة في كتابي تحت عنوان: «ويتمان العربي». وبالفعل، فالقارئ لهذا الكتاب المدهش يرى كيف أنّ والت ويتمان يتحدث عن مصر، أو المؤذن، أو النيل وغيرها الكثير، مثلما تحدث رامبو عن «لبنانات الحلم». تحدث هذا أو ذاك ابتداء من الكتب. وطلب ويتمان خصوصاً اللحاق بما هو بعيد عنه، في نوع من عولمة لا اسم لها بعد. «أسمعُ الجراد في سوريا وهو يضرب المحاصيل والعشب باندفاعات غيومه الرهيبة، أسمعُ اللازمة القطبية في الغروب، متسافدة في استغراق على صدر النيل الأم الداكنة الشاسعة المهيبة». «أسمع المؤذن العربي يدعو من قمة المسجد...». «أرى الصحراوات الليبية، والعربية، والآسيوية». «أسمعُ الدراويش ينشدون برتابة، تُوشِّيهم صيحات مسعورة، فيما يدورون متّجهين دائماً نحو مكة». «أسمع من المسجد الإسلامي آذان المؤذن، أرى المصلِّين بالداخل، بلا نسق ولا موعظة، لا جدال ولا كلمة، بل صامتين، غرباء، مخلصين، برؤوس مرفوعة، محتدمة، ووجوه منتشية. أسمع القيثارة المصرية ذات الأوتار الكثيرة، الأغاني البدائية لمراكبية الليل».

ويتمان يبدو في «أوراق العشب» مثل كريستوف كولومبس، فوق سفينة، ولكن في اتجاه معاكس: من أميركا صوب العالم القديم. وما يتضح، في شعره، قوة عامرة بقدراتها التي تتحقق منها: قوة من يخرج من قريته، من ولايته، إلى أميركا كلها. هذا ما نراه، ودائماً مع الشاعر شربل داغر، في وقائع حياته أو في أشعاره، التي تحتفي بالأرض، وبتلك الروح التي تتأكد من تملكها لأرض باتت لها، وتسود فوقها، وتمنع ما يهددها فيها. ما يستوقف في شعر ويتمان هو هذا الجمع بين الخفة والقوة، بين اللهو والتمكن، بين طلب التواصل وإعلاء الصوت الانفرادي. وقد أكد لي شربل داغر في آخر حوارنا المتشعب ذاك أن ويتمان يكتب قصيدته بعينه، بعينيه، إذ تتنبهان لأية حركة، لأي ضوء، للماشين المتهادين في شارع، أو للمرحى في خيمة منصوبة في العراء، في تواصل، مع الغير، أياً كان. لهذا تتخذ حركة عينيه شكلاً أبعد من المعاينة، أقرب إلى سرعة الكاميرا المتحركة، أقرب إلى السينما قبل ميلاد السينما. لا أتصور أنّ أحداً منا استطاع التفاهم مع والت ويتمان شعراً وفكراً، بهذا الشكل الذي عاد به شربل داغر إلينا شعراً وخيالاً وانتباهات. لذلك وجدته يختتم حديثه لي قائلاً بخصوص ويتمان إن القصيدة باتت معه متخففة من الأخلاق، صارت مشغولة بالزمن، صنو الحركة، والكيانية الفردية، في شغف للحياة، سواء في الانفراد أو في الجموح أو في التطلع إلى البعيد.

* شاعر ومترجم وناشر
مقيم بين تونس ولندن